كلمةُ (سَاعَةٍ) ودَلالَتُها

في القرآنِ الكريم

د. عوض محمد أحمد كمبال*

ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام ، على أشرف الأنبياء والمرسلين ،

أما بعد – فيُمكن تلخيص هذا البحث فيما يلي:

المقدمــة وكانت عبارة عن كلمات مؤجزة ومختصرة ، ثم المبحث الأول ، وكان الحديث فيه عن تعريف لفظ "الساعة" لغةً واصطلاحاً ، وقد دعاني ذلك للبحث في المعاجم وكتب الجغرافية الفلكية والفيزياء وغيرها، والكتب التي لها صلة بذلك.

ثم المبحث الثانى، تحدثت فيه عن تاريخ الساعة بطريقةٍ مقتضبة ، وذلك حتى تتناسب مع حجم هذا المبحث المتواضع ، ويلى ذلك المبحث الثالث ، وذكرت فيه أهمية الساعة والحاجة الماسّة إليها، وكان المبحث الرابع هو الختام لهذا الموضوع ، وقد قسمته إلى مطلبين: المطلب الأول في الكلام عن الساعة التي هي القيامة ، وما ورد فيها في القرآن الكريم ،وأن القرآن الكريم تناولها بصورة بديعة وعجيبة، وأكثر جداً من زكرها ، وما ذلك إلا ليؤكد أنها مسألة لا شك فيها، ولا ينكرها إلا مكابرٌ ومعاندٌ، والمطلب الثاني تحدثت فيه عن الساعة بمعني فترة زمنية مبهمة ، وذيلت ذلك بالهوامش

---

* أستاذ مساعد بجامعة ام درمان الإسلامية كلية أصول الدين

المقـــدمة

الحمدلله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه أجمعين. **أما بعد** – فالبحث وما يتعلّق بكلمة (السّاعة) وما تدل عليه تلك الكلمة في كتاب الله العظيم ، ومن تتبعى لهذا الموضوع وجدت بأن هذه الكلمة لا تخرج عن معنيين اثنين في القرآن الكريم ، إذ جآءت كثيراً تدلّ على القيامة ، وتتميز في هذه الحالة بأنها تُحلّي بـ(أل) ، وجآءت أقلّ بكثير للدّلالة على زمن مبهم لا تحديد له ، أما السّاعة المعروفة الآن فإنّها لم تكن معروفة في ذلك العهد ، وذلك على الرّغم من أهميتها والإحتياج إليها .

أهمية الموضوع :

يعتبر هذا الموضوع من المواضيع المهمة ، ويتمثل ذلك في جمع آيات كلمة (الساعة) في بحث واحد، ثم القيام بشرحها وتوضيحها ، وذلك لما لهذه الكلمة من أهميةٍ كبيرةٍ في عقيدة المسلمين ، والذي يدل على هذه الأهمية أن هذه الكلمة أخذت مساحة كبيرة من كتاب الله تعالي .

الدراسات السابقة .

مع كثرة البحوث والكتابات المتداولة الآن – لم أقف على موضوع كهذا ، وذلك مع كثرة المؤلفات التي تتحدث عن هذا الموضوع بصورة عامة ، ولهذا يعتبر هذا البحث إضافة للمكتبة الإسلامية .

منـهج البحث .

قمت في هذا البحث بتتبع كلمة (الساعة) في القرآن الكريم ، ثم شرحها وتوضيحها من التفاسير المختلفة ، وذلك بقدر مايسّر الله عز وجل مما يجعلني أقول بأن منهجي في هذا البحث هو المنهج الاستقرائي والتحليلي ، ولعل هذا المنهج هو الذي تتبعه أغلب البحوث العلمية .

خطة البحث .

ضمّنت هذا الموضوع أربعة مباحث، وكان استهلاله بالمبحث الأول، الذي ذكرت فيه تعريف الساعة لغةً واصطلاحاً ، ويلي ذلك المبحث الثاني ، الذي تحدثت فيه عن تاريخ الساعة، وبعده المبحث الثالث، وكان الكلام فيه عن أهمية الساعة، وعقبت ذلك بالمبحث الرابع ، الذي كان خاتمة هذا الموضوع، وتكلمت فيه عن

الساعة في القرآن الكريم، وكان ذلك المبحث أطول المباحث ، إذ هو لبُّ الموضوع وجوهره ، ولهذا قسمته إلى مطلبين تراهما في محلهما ، ووضعت الهوامش في نهاية البحث، وفي ختام هذه المقدمة – أسال الله التوفيق والسداد والقبول ، إنه القادر على ذلك، وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين .

المبحث الأول :التعريف.

المطلب الأول : الساعة لغــة .

تُحدّثنا المعاجم اللغوية بأنّ كلمة ساعة في لغة العرب أصلها (سَوَعَة) بفتحات ، ولكن تحرّكت الواو وانفتح ما قبلها فقُلبت ألفاً ، وتلك قاعدة صرفية معروفة ، قال ابن مالك (١) :

من ياءٍ او واوٍ وبتحريك أُصِلْ ** ألفاً أبدِلْ بعد فتح مُتّصلْ

ولا يتمّ ذلك الإبدال إلا بشروط معروفة عندهم ، ثم إنّ الساعة جزء من أجزاء الليل والنهار ، والجمع : ساعات وساعٍ . والساعة : الوقت . والساعة : القيامة (٢) .

وجآء في (مختار الصَّحاح) : الساعة : الوقت الحاضر ، والجمع : (السّاع) و(الساعات) ، وعامله (مُساوعةً) من الساعة ، كما تقول : (مُياومةً) من اليوم ، ولا يُستعمل منهما إلا هذا (٣) .

وفي (المصباح) : الساعة : الوقت من ليل أو نهار ، والعرب تُطلقها وتُريد بها : الحين والوقت وإن قلّ ، وعليه قوله تعالى :(**قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)**(٤)،ومنه قوله عليه السلام : **(مَن ْرَاحَ في السّاعةِ الأُولى)** (٥)،فليس المراد الساعة التي ينقسم عليها الليل والنهار القسمة الزمانية، بل المراد:مطلق الوقت وهو السبق، وإلاّ لاستوى من جآء في أوّل الساعة الفلكية، ومن جآء في آخرها ، لأنهما حضرا في ساعة واحدةٍ ، وليس المراد ذلك ، بل من جاء في أوَّلها أفضل ممن جآء في آخرها ، والجمع :(ساعاتٌ) و(سَواعٍ)، و(ساعٍ) وهو منقوص (٦).

وممّا تقدم نُدرك بأنّ الساعة تعني بُرهةً من الزمان ، ولكن غير محددة ولا معيّنة ، وسوآء كانت تلك الفترة من الليل أومن النهار ، والقرآن عندما نزل في ذلك العهد، لم تكن الساعة الموجودة الآن معروفة في تلك الحقبة التاريخية ، وإنما الساعة

المعروفة عندهم هي فترة زمنية غير محددة، ونزل القرآن فاستعملها دالّة على ذات المعني المتعارف عليه عندهم .

المطلب الثاني : الساعة اصطلاحاً [٧].

تُعرّف الساعة عند علماء الفلك : بأنها جزءٌ من (٢٤) جزءاً متساوية من اليوم والليلة، والساعة الواحدة تنقسم الى (٦٠) دقيقة ، والدقيقة أيضاً تنقسم إلى (٦٠) ثانية، وقد أصبح هذا التقسيم وهذه الأجزاء مشهورة ومعروفة بين الجميع، وفي كل أنحاء العالم، فالجميع يعرفون ذلك، ولكن لا أدري لماذا كان العدد الذي تنقسم اليه أجزاء الساعة هو هذا الرقم بالذات؟ والملاحظ أن الدقيقة اكثر استعمالاً من الثانية، وذلك لأن الثانية جزء قليل جداً فلا يُكاد يُلتفت إليه في أغلب الأحيان.

وجاء في كتاب "شهور العرب" ما يلي : الساعة جزءٌ من أجزاء الليل والنهار ، والليلُ والنهارُ معاً أربع وعشرون ساعةً ، طال الزمان أو قصر ، ولكل ساعة من ساعات الليل والنهار عند العرب اسم يميزها ، فأول ساعات الليل الشفق، وآخرها الفجر ، وأول ساعات النهار الشروق، وآخرها الغروب، ثم إن الليل والنهار لايتساويان في الحقيقة إلا مرتين في السنة ، في الإعتدال الربيعي والاعتدال الخريفي ، ويكون النهار أطول في الانقلاب الصيفي ، وأقصر في الانقلاب الشتوي [٨].

وهنالك تعريفات اصطلاحية غير ما ذكرنا ، ولكنها تصبّ جمعيها في نفس ذلك الإتجاه ، ويبقي المعني واحداً بين جميع تلك التعريفات ، ولا مشاحة في الإصطلاح .

وعلى كل حالٍ فالساعة هي آلةٌ لضبط الوقت وتحديده وبدقةٍ متناهية ، وهي من أهمّ الآلات التكنولوجية في حياة الإنسان ، وإذا كان الإنسان قديماً قد صنع الأدوات التي ساعدته في الدفاع عن نفسه ، وفي صيد الحيوانات، وفي حراثة الأرض وغيرها من الأعمال، كما قال تعالى:(**وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ**) [٩] ، فإنه في الوقت نفسه قد كان يبحث عن شئ يحدد به وقته في تقلّبات حياته ، وقد كان ذلك الإنسان يسعي سعياً حثيثاً لإيجاد تلك الوسيلة ، التي هي آلة قياس الوقت ، وعندما عثر الإنسان على ذلك صار يحدّد وقته بتلك الآلة ، ولكن بصورة تقليدية ، وبطريقة بعيدة عما هي عليه الآن، ذلك لأن آلة القياس التي عرفها في ذلك العهد كانت آلة تقليدية كما قدمنا، وكل التعريفات الإصطلاحية المتداولة الآن لا تنطبق على الساعة القديمة، إذ لم تُعرف الدقائق والثواني في ذلك العهد ، ولاكونها آلة صغيرة يمكن حملها بالشكل المتطور الحديث ، ولكن قد تدخل

تلك الساعات القديمة في التعريف الإصطلاحي ، الذي يعرّف الساعة بأنها آلة لقياس الوقت ، وذلك بغضّ النظر عن أجزاء الساعة من دقيقة وثانية .

ثم إن التعريف الإصطلاحي ينطبق على تعريف الساعة من الناحية الزمنية ، وذلك بصرف النظر عن شكلها وحجمها وما إلى ذلك ، ذلك لأن الهدف من الساعة هو تحديد الوقت وضبطه ، والشكل والهيكل أشياء غير جوهرية فيها .

ومما ينبغي أن نقوله إن حركة الإنسان تُعتبر تجسيداً للجانب الزمني ، والذي أدرك الإنسان أهميته وبصورة واضحة وجلية ، وذلك من وجوده على هذه البسيطة ،فهو مخلوق محصور بين شيئين هما :

(١) الزمـــان . (٢) المكـــان .

ولا انفكاك له عن ذلك ، أما المكان فتحديده ممكن وبكل سهولة ، فالمكان محسوس، ويراه الإنسان بعينيه ، وأما الزمان فهو ليس محسوساً كالمكان ، ولا هو شئ يُرى له، ويتضح هذا جليّاً عند تعريف كل منهما ، فليس في تعريف المكان كبير عناء ، ولكن تعريف الزمان بخلاف ذلك ، ولهذا يختلف العلماء في تعريفه، وهو قطعاً ليس من المحسوسات ، ولكن هل هو من الإعتبارات أو المجردات ؟ خلافات تجدها عند الفلاسفة منذ القدم ، ومن هذا كان تحديده يختلف عن تحديد المكان .

وعندما تم تحديد الزمان وضبطه – كان ذلك المحدد هو الساعة ، فهي إذن الآلة التي يتحدّد ويتعين وينضبط بها الزمان ، ويتم التحديد بالساعة نفسها ، والتي هي (٦٠) دقيقة ، فيُقال تُقلع الطائرة في تمام الساعة الثانية ظهراً مثلاً ، ويتم التحديد لأجزاء الزمان أيضاً بالدقائق والثواني ، وعندما بحث العلماء عن حركة الأرض حول محورها الوهمي ، وجدوها تُكمل دورة كاملة في تمام (٢٤) ساعة ، تشتمل تلك الساعات على الليل والنهار ، ومن خلال ما تقدم نُدرك التعريف الإصطلاحي للساعة .

المبحث الثاني : تاريخ الساعة

الساعة مهمة جداً ، ولأهميتها كانت هي الضالّة التي ينشدها الإنسان منذ الماضي البعيد ، وقد اهتدي الإنسان منذ تاريخ البشرية الطويل، إلى أهمية معرفة الوقت وتحديده ، وقد كانت الشمس هي الساعة الأُولى لتحديد الأوقات النّهارية، إذ كان البشر يحددون الوقت بدورانها حول فلكها ، وكان من السهل جدّاً أن يعرف الإنسان ساعة الشروق ، وساعة الضحي ، وساعة نصف النهار، والدُّلوك والغروب

، ولكن قد تخفى عليه الأوقات التي بين ذلك ، وفي بعض الأحايين يُراقب الإنسان الظّل لمعرفة الوقت،ويلاحظ تغيّره أثناء ساعات النهار ، وخاصة عندما يصعب عليه تحديد الوقت بالشمس،إذ يلجأ حينئذ إلى الظّلّ الناتج عن حركة الشمس،لعلّه يهتدى بذلك إلى الوقت المطلوب،فالإنسان إذن كان يستخدم الشمس أولاً،ثم انتقل بعد ذلك في بعض الأحيان إلى ضبط الوقت بطول الظل وحركته، ثم انتقل بعد ذلك رويداً رويداً إلى أن وصل إلى اكتشاف الساعة التي يقيس بها وقته،ولكن بصورة بدائية،وهذا شيء طبيعيّ في نشأة الأشيآء،وسنة كونية لا فرار منها [١٠].

وجآء في **(دآئرة المعارف)**:أن الساعة هي آلة قياس الوقت ، ولم يكن الأقدمون يعرفونها إلا على هيئة مزاول شمسية ، وكانت تلك المزاول تُستعمل في البيوت وأماكن العبادة ، وأوّل من توصّل لضبط الساعة هو الراهب : (جيري) ، وذلك في القرن العاشر الميلادي ، وتطورت الساعات منذ تلك الفترة ، إلى أن وصلت إلى ما عليه الآن ، ويبدو أن الألمان هم السابقون في إتقان وتطورات الساعة [١١].

فالإنسان ذلك المخلوق العاقل ، خلقه الله لتعمير هذه الأرض ، قال تعالى:**(هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)** [١٢]. وقال تعالى :**(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)** [١٣]. فهو الذي خُلق لذلك الأمر الجلل، وتلك المهمة الكبيرة ، ولهذا فلابد من ضابط يحدد به مصيره على هذه الأرض ، ليؤدّي مهمته بصورة محددة، وبطريقة يطمئنّ إليها قلبه.

ولكنه عندما التفت إلى أشياء الطبيعة التي حوله ، لم يجد شيئاً ثابتاً ومستمراً غير حركة الأفلاك الكونية ، فهناك حركة الشمس ، وكذلك حركة القمر ، ولما كانت حركة الشمس الظاهرية يومية اعتمد عليها في أغلب الأوقات، وفي بعض الأوقات يلجأ إلى سير القمر ، أما حركة الأرض فلم تكن معروفة في ذلك الوقت ، بل كان البعض – ولوقتٍ قريبٍ – ينُكر حركة الأرض حول نفسها، ثم استمر البحث والتنقيب عن الساعة، إلى أن تطورت ووصلت إلى مدي بعيد مما كانت عليه في الماضي ، وذلك بفضل الثورة الصناعية الحديثة .

المبحث الثالث : أهمـــية الساعة

من الطبيعي جداً أن تَلْقي الساعة اهتماماً كبيراً ، ذلك لأن الإنسان يحتاج أن يتعامل بها في تحديد أوقاته وضبطها ، ولا غني عن تلك الوسيلة القيمة ، ولا يحتاج الأمر لأدلّة تَقام في هذا الموضوع، وقد أشار القرآن في غيرما آية إلى أهمية الوقت ، والمؤمن بالذات هو أشد إحساساً بقميه الزمن ، لأنه يؤمن إيماناً قاطعاً أنه سيُحاسب عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم ضيّعه؟ لذا نجد أن المؤمن أشدّ حرصاً على الزمن من غيره ، وبالذات فيما يتعلق بعباداته، التي تصله بربه سبحانه وتعالي ، وهو بحرصه على الوقت يعمر هذه الأرض ، ولا يوجد لدى المؤمن دافع يبعثه على الجد والعمل مثل الدافع الإيماني ، الذي يجعله يملأ الأرض حركةً وإبداعاً في شتى المجالات ، وتراه يضنّ بوقته أن يضيع من غير فآئدة .

والزمن هو رأس المال الوحيد، لنيل السعادة في الآخرة ، فكيف يليق بالمؤمن أن يضيّعه سدي ، ويأتي يوم القيامة صفر اليدين ؟ وخسارة الوقت لا عوض لها ، لأنه لا يعود، قال الشاعر (١٤)

ما مضي لا يعودُ والمؤمّلُ غيْبٌ ** ولك الساعةُ التي أنت فيها

وهو نعمة كبيرة من نعم الله تعالى علي الانسان . هذا – ومما نودّأن نقوله إنه لم يُعرف دين من الديانات ، أو أمة من الأمم ، أو حضارة من الحضارات اهتمت بالوقت، وأعلت من شأنه بالقدر الذي اهتم به دين الإسلام ، مما يؤكد لنا وبلا شك أهمية الساعة ، والله سبحانه وتعالى ذكر لنا كثيراً من آيات الزمان في كتابه العزيز ، مما يدلّ على عظم الزمن ومكانته في الإسلام ، ومن ذلك قوله تعالى : (**هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالحَقِّ يُفَصِّلُ الآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**) (١٥) ، وهناك عدة شواهد تبيّن مدي اهتمام المسلمين بالوقت ، فهم أوّل من اخترع الساعة المائية الدقّاقة ، التي أهداها الخليفة هارون الرشيد، إلى الإمبراطور (شَارِلمْان) ، وذلك في عام ١٩٣هـ (١٦).

كما توضّح المصادر التاريخية أيضاً – أن الملك الأشرف قد أهدي أول ساعة ميكانيكية، للإمبراطور الروماني (فردريك الثاني) ، وذلك في القرن الثالث عشر الميلادي ، أي في عام ٦٣٥هـ ، ولم يقف الأمر عند ذلك فحسب ، بل إن المسلمين قاموا بتطوير المزولة الشمسية ، التي تُبيّن الوقت من مراقبة اتجاه الظّلّ على سطحٍ مدرّج ، كما استخدموا الإسطرلاب لمراقبة حركة النجوم والكواكب ، ومعرفة الوقت والجهات الأصلية (١٧).

وبينما كانت المجتمعات الأخرى تتحدّث عن قتل الوقت - فإن المسلمين كانوا يتحدّثون عن عمارة الوقت بما هو نافع لهم ، لأنهم كُلّفوا بعمارة الأرض ، التي تتطلب الإنتفاع بمختلف الأوقات ، وذلك يُبيّنُ لنا أن المسلمين الأوائل حوّلواْ قيمة الوقت من مبدأ إيماني إلى سلوك عملي تطبيقي ، فكان السـائد عنـدهم أن من خسـر الوقت فقد عمره ، لكون الوقت هو الحياة كلها.

هذا الكلام وغيره جعل الإهتمام بآلةٍ تُحدّد الوقت من الأهمية بمكان ، ويتضح الإهتمام اكثر فأكثر في العبادات ، وبالذات الصلاة والصيام ، ففي الصيام نحتاج لمعرفة وقت الإفطار، ووقت السحور ونحو ذلك ، وأما الصلاة فهي أكثر العبادات حاجة إلى ذلك ، ولكن عندما كانت الساعة مفقودة كانوا يلجأون إلى العلامات الطبيعية ، واكثر وقتِ صلاةٍ أخذ أهمية كبيرة هو وقت الظهر ، وقد ذكر كثير من الفقهاء ظلَّ الزوال، وتغيراته بين شهور السنة ، ونجد كلامهم في ذلك ما بين نظم ونثر ، ومثال ذلك قول صاحب الروضة البهيّة [١٨] .

ظلُّ زَوالِنا بفاسِنا أُخَيْ ** أقْدامُه يَحَهْ جَبَا أَبَدْ وَحَيْ

وذا محقّقٌ لـيومٍ أوّلِ ** وغيرُه انسُبْهُ لبدْءِ ما يلي

وفي الدُّرّ الثمين [١٩] :

وإْن تُرِدْ ظِلَّ الزّوالِ فاعْلَمِ ** لِفَاسٍ رَتبَّنْ شُهورَ العَجمِ

وهذا البيت من ضمن ثمانية أبيات ، ولا تكاد تُقرأ بسهولة ، وما يهمنا من ذلك هو الإهتمام الشديد بأوقات الصلاة المفروضة، وكان لوقت الظهر اهتمام واضح من خلال كتاباتهم عن أقدام الزوال ، وكل ذلك لمعرفة أوّل الوقت . ومما أخبرني به **والدي** - أطال الله عمره أن أقدام الزوال في الكلمات الآتية : **(بَجْدٌ هوزٌ وهدٌ جَبأ)** وهي بحساب الجُمّل ، وهي تبدأ من الشهر الثامن في السنة الشمسية، وتنتهي بالشهر السابع منها ، فأقدام الزوال في الشهر الثامن هو قدمان ، وفي الشهر التاسع ثلاثة أقدام ، وفي الشهرالعاشر أربعة أقدام ، وهكذا إلى الشهر السابع ، فظل الزوال فيه قدم واحدة ، وذلك بحساب الجُمّل كما قدمنا ذكره .

وظل الزوال يختلف باختلاف البلدان والأزمنة ، وقد قدّر القدماء ذلك بأقدام الزوال التي تحدثنا عنها .

ولا بأس أن نذكر العلامات الطبيعية ، التي كانوا يستعملونها في تحديد أوقات الصلوات المفروضة ، فمن ذلك تحديد الوقت الإختياري ، فتراهم يتعاملون بما يلي [٢٠]

١) الظهر ، وقته الإختياري من الزوال إلى نهاية القامة الأُولي .

٢) العصر ،ووقته الاختياري من ابتدآء القامة الثانية إلى نهايتها ،وقيل إلى الإصفرار .

٣) المغرب ، ووقته من المغيب بقدر ما تُؤَدّي بشروطها ، وقيل إلى مغيب الشفق الأحمر.

قال بعضهم [٢١]:

ورجّح الرّجراجُ وابنُ العربي ** للشّفقِ امتدادُ وقتِ المغربِ

٤) العشاء ، ووقته من مغيب الشفق الأحمر إلى نهاية ثلث الليل الأول .

٥) الصبح ، ووقته من طلوع الفجر الصادق إلى الإسفار البيّن.

قال بعض الفضلاء [٢٢]:

ومعرفةُ الأوقات فـــــرض معــيّنٌ على علماء المســــلمين مؤكّدُ
أتى ذاك في القــرآن ياصـــاح مجملاً وفســــّره خير البرية أحـــمدُ
فمهما رأيت الظــــلَّ قد زاد فيـــؤُه فصلِّ صلاة الظهر إذ ذاك تسـعد
وزد قامـــةً بعــــد الـزوال فـإنه أوانٌ لوقت العصـــر وقتٌ محدّدُ
وآخِرُ وقتِ العـــصر من بعدِ قامـةٍ إلى القامةِ الأولي تُضـــاف وتُرصـدُ
وعند غروب الشمس قم صلِّ مغرباً فليس لها وقتٌ ســـوى ذاك مفردُ
وصل العشا بعد انتظـــارك حمـرةً إذا الشـفق العــــالى يُجاب ويُفقدُ
ولا تلتفت إلى البـــيـــاض فإنه يدومُ زماناً في الســـماء ويوجـدُ
وأيقن بأن الفجر فجـــرانِ فميزهما حــقـــاً

عنـدنا فــأنت مقلّدُ
فأول فجـــــــــــــــــــــر منهما ترى ذنب السِّرحان في الجوّ يصـعدُ
طالـع كمـا
فهذا كــــــــــــــــذوبٌ ثم آخـــر منّورُ
صادقٌ ضـــــــــــــــــــــوءٍ
بعده يتجددُ
ولاخير فيمن كان بالوقـت جاهلاً ولم يك ذا
عــــــــــــــــــلـــم بما
يتعبّد

فمما تقدم يُلاحظ أن العلماء كانوا يستخدمون هذه العلامات الطبيعية ، وذلك لضبط وتحديد أوقات الصلاة ، وذلك لغياب الساعة، وعندما ظهرت الساعة صارت هي الضابط المحدد لذلك ، فالمؤذّنون والأئمّة وغيرهم يعتمدون عليها اعتماداً واضحاً الآن، مما يؤكّد أهميتها والحاجة إليها ، وذلك في العبادات وغيرها ، وقد كانت هي خير بديل لما سبقها ، وإذا كانت العلامات الطبيعية قد تختفي في بعض الأحوال ، وذلك لتغير الأحوال الجوية ، فإن الساعة الحديثة لا يعتريها ذلك ، وهي أكثر دقّة وضبطاً من تلك .

وقد تطورت الساعة الآن بفضل الثورة العلمية الهائلة ، وأخذت أشكالاً شتى ، وإذا كان الهدف منها قديماً هو معرفة الوقت فحسب ، فإنها أخذت الآن بجانب ذلك ناحية أُخرى، وهي النواحي الجمالية ، التي زادت من أهميتها ، والرغبة في امتلاكها ، فأهميةُ الساعة لا تُنكر ، سواء في الحياة بصفة عامة أو في العبادات، لكن أهميتها في العبادات ثابتة بثبوت تلك العبادات ، وأما في نواحى الحياة فإن أهميتها تزداد كلما أزدهرت الحياة ، وكلما تطورت وسارت بخطوات حثيثةٍ نحو الأمام ، وقد انتشرت الساعة الآن وبصورة واسعة ، فتجدها مستقلة وحدها، وتجدها في الحاسب الآلي ، وفي الهاتف السيّار ونحو ذلك.

المبحث الرابع

الساعة في القرآن الكريم

من خلال الكلام المتقدّم - عن الساعة- يتضح لنا أن الساعة تنقسم إلى ثلاثة أقسام تراها كالآتي :

١) الساعة بمعنى : القيامة .

٢) الساعة بمعنى : فترة زمنية مبهمة .

٣) الساعة المعروفة الآن .

وهذه الأخيرة لها أنواع كثيرة ومتنوعة ، ولها جذور ضاربة في القدم ، ولكنها تختلف اليوم عما كانت عليه في غابر الزمان ، فقد تطورت الآن ، وتفنّن الناس في صناعتها وحجمها وشكلها ودقة قياسها للوقت ، وذلك بصورة حديثةٍ متناسبةٍ مع التطورات العلمية الأُخرى .

أما الساعة بمعنى : القيامة ، وبمعنى : فترة زمنية مبهمة ، فقد وردا في القرآن الكريم ، وفي (٤٨) موضعاً [٢٣]، ولكي نوضح ذلك نذكرهما في مطلبين .

المطلب الأول : الساعة بمعنى: القيامة.

تختلف الساعة بمعنى القيامة عن الساعة الثانية في شيئين هما :

١) أن الأُولى وردت في القرآن الكريم أكثر من تلك .

٢) أن الأُولى لم تات إلّا وهي مقرونة بـ(أل) أما الثانية فقد أتت في كُلّ المواضع مجردة من (أل)، فالأُولى معرّفة بـ(أل) التي تُفيد العهد الذِّهني ، ذلك لأنها ساعة معروفة ومتمكِّنة في كّل الأذهان ، وأنها مسألة آتية لا شك فيها ، وفي الوقت نفسه تأتي الثانية وهي نكرة دائماً ، وذلك لأنها فترة زمنية غير معروفة ، فهي ليست محددة ولا معينة ، وقد تطول تلك الفترة بحسب الحال وقد تقصُر .

ثم إنّ الساعة التي هي القيامة ورد ذكرها في كتاب الله تعالى في (٤٠) موضعاً [٢٤] ، وما أكثر الله تعالي من ذكرها إلا لأهميّةٍ بالغةٍ ، وحكمةٍ ربانية ، وسوف أذكر نماذج من ذلك، وأشرحها بطريقة موجزة ، وإليك ذلك :

(أ) **السؤال عن الساعة .**

تكرر السؤال عن الساعة أربع مرات في القرآن الكريم ، وذلك في ثلاث آيات مباركة ، فقد ورد السؤال عنها مرتين في سورة الأعراف في آية واحدة ، وهي الآية التي نحن بصددها، ثم جاء بعد ذلك في سورة الأحزاب ، وفي سورة النازعات ، كما سيُذكر ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى ، والسائل عن الساعة بصفة عامة قد يكون مؤمناً وقد يكون كافراً معانداً ، ولكن يبقي الفرق بين السؤالين واضحاً، فسؤال المؤمن عنها يختلف عن سؤال الكافر، فالمؤمن يسأل عنها وعن وقت مجيئها ليستعد لها، ويتهيأ لذلك الحدث العظيم بالأعمال الصالحة ، وهو كله إيمان بها.

وأما الكافر فإنه يسأل عنها سؤال إنكار وامتحان وتعنّت، وهذا واضح في تفسير هذه الآية.

(١).قال تعالي : ﴿*يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ* مُرْسَاهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٢٥] .

قال الدكتور محمد سيد طنطاوي : قال الآلوسي : عن ابن عباس أن قوماً من اليهود قالوا : يامحمد ، أخبرنا: متى الساعة إن كنت نبياً ؟ ، إنا نعلم متى هي ، وكان ذلك امتحاناً منهم ، مع علمهم أن الله تعالي قد استأثر بعلمها . وأخرج ابن جرير عن قتادة أن جماعة من قريش قالوا : يامحمد أَسِرْ إلينا متي الساعة لما بيننا وبينك من القرابة، فنزلت [٢٦].

والساعة في الأصل اسم لمدار قليل من الزمان غير معين، وتطلق في عرف الشرع على يوم القيامة ،وهو المراد بالسؤال هنا [٢٧].

والمعني: يسألك يامحمد هؤلاء القوم عن الساعة قائلين أيّان مرساها ؟ أىْ : متى وقت مجيئها وحصولها ؟ [٢٨].

وقوله :(قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ) هذا جواب عن سؤالهم ، أيْ : قل لهم أيها الرسول الكريم :إنما علم ذلك عند ربّي وحده ، فعلمها ليس عندى ولا عند غيرى، والتعبير بإنما المفيد للحصر للإشعار بأن الله تعالي هو الذي استأثر بعلم ذلك، ولم يخبر به أحداً من خلقه ، لا ملك مقرّب ولانبيّ مرسل. [٢٩].

وقوله : (لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ) بيان لإستمرار إخفائها إلى حين قيامها، وإقناط كلّى عن إظهار أمرها بطريق الإخبار [٣٠].

والمعني:لا يكشف الحجاب عن خفائها ، ولايُظهرها للناس في الوقت الذي يختاره إلا هو وحده .

لكن ما السبب في إخفائها؟السبب في إخفائها عن العباد ليكونوا حذرين دائماً، وذلك أدعى للطاعة وأزجر عن المعصية،لأن المكلّف متى علم وقتها فربّما تقاصر عن العقوبة.[٣١].

والمخفيات كثيرة،وكلها أخفاها الله لحكمة إلهية، ومن تلك المخفيات ما قاله بعضُهم: [٣٢].

وأُخفيت الوُسطى كساعةِ جُمعةٍ ** كذا أعظمُ الأسماء معْ ليلةِ القدْرِ.

فالصلاة الوسطي، وساعة الإجابة من يوم الجمعة، والإسم الاعظم، وليلة القدر، كلها من المخفيات . ثم بعد ذلك عظّم الله تعالي أمر الساعة فقال: (ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أىْ: كبُرت أوشقّت على أهلها لخوفهم من شدائدها وأهوالها ، وما فيها من محاسبة ومجازاة ، وعن السُّدّى :أن من خفى عليه علم شيء كان ثقيلاً عليه[٣٣].

والمعني : أنها ثقلت عند الوقوع على نفس السموات، حتى انشقت وانتثرت نجومُها وكوّرت شمسها ، وعلى نفس الأرض حتى سُيّرت جبالها ، وسُجرت بحارها .

إنه مشهد رهيب ومخيف في ذلك اليوم العظيم ، فمشاهد اضطراب النظام الكوني واختلاله يوم القيامة، يملأ النفوس هيبةً ورهبةً ومخافة ، إذ تختلّ عند ذلك الجبال والسماء والشمس والقمر والنجوم والبحار ، وصوّر ذلك العليم الخبير في كتابه ، ونرى ذلك في مطلع سورة الحج، وسورة التكوير، والانفطار، والانشقاق، وقد تنوعت هذه المشاهد، فالأرض والجبال في سورة المزمل ترتجف، وتصبح الجبال كثيباً مهيلا ، والأرض والجبال في سورة الحاقّة تُحمل وتُدكّ دكّةً واحدة ، والجبال في سورة طه تُنسف، ويصبح مكانها مستوياً ، وهى في سورة النمل تسير مثل السحاب، وتكون الجبال في سورة النبأ سراباً ، وتكون في سورة القارعة كالعهن المنفوش .

ومثل هذا التنوّع واردٌ بالنسبة للبحار والشمس والقمر والنجوم .

إنها ساعة ثقيلة فعلاً كما أخبرنا عنها الله تعالي في هذه الآية .

وهي عندما تأتي تجئُ بغتةً وبصفة لم تكن في الحُسبان ، وعندها تحصل الحسرة والندامة ، ويندم الكّفار والعصاة حيث لاينفع الندم .

وقد ذكر الله مجئ الساعة (بغتةً) في خمس آيات [٣٤] ، ووردت في أحاديث كثيرة تدل على ذلك.

وقد تكرر السؤال عن الساعة في ختام الآية التي نتحدث عنها ، وأُمر النبيّ (صلّى الله عليه وسلّم) بأن يرّد علمها أيضاً إليه تعالي ، وفي ذلك يقول تعالي:﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا) كأنك عالم أو مهتّمٌ بها ، فالساعة علمها عنده سبحانه وتعالي ، والتكرار المذكور في الآية للتوكيد .

وخُتمت الآية بجهل أكثر الناس ، وأنهم لايعلمون ماعند الله تعالي من المغيبات،والتي منها قيام الساعة [٣٥].

(٢) وقال تعالي : (*يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا* عِندَ اللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ *السَّاعَةَ* تَكُونُ قَرِيبًا) [٣٦]. أىْ : يسألك يامحمد اليهود وأشباههم في الكفر والنفاق عن وقت قيام الساعة ، وسؤالهم هذا من باب التعنّت والإساء ة والإمتحان ، وهنا أيضاً أُمر الرسول بأن يردّ علمها إليه تعالي .

وقوله (وَمَا يُدْرِيكَ) أى وما يعلمك (لَعَلَّ *السَّاعَةَ* تَكُونُ قَرِيبًا) ، لكن هذا الوقت مهما قرب لا يعلمه إلا علّام الغيوب.

(٣).قال تعالي: (*يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا* (٤٢) *فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا* (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يوم يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا [٣٧]

هذه الآية المباركة مثلُ الآيتين السّابقتين ، والمعني : يسألك يامحمد هؤلاء القوم عن وقت قيام الساعة ، قائلين لك : متى يكون استقرارها ووقوعها ؟

وأُطلق على يوم القيامة ساعة لوقوعه بغتة ، أو لسرعةِ مافيه من الحساب ، أو لأنه مع طوله زمان يسير عند الله تعالي.

وقوله:(*فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا*) أىْ : فيم هذا السؤال ؟ وأنت يامحمد من ذكراها ، أىْ: أنّ بعثتك علامةٌ من علاماتها ، وقيل غير ذلك . (٣٨)

وقوله : (إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا) أى : إلى ربك وحده منتهى علم قيامها .

وقوله : (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا) أى : ليست وظيفتك أيّها الرسول معرفةَ الوقت الذي تقوم فيه الساعة، فهذا أمرٌ مردّه إلى الله وحده ، وإنما وظيفتك بيان اقتراب وقتها، وتفصيل أهوالها ، ودعوة الناس ليستعدوا لها بالإيمان والعمل الصالح .

وخَصّ الله سبحانه وتعالي الإنذار بمن يخشي قيام الساعة ، مع أن رسالته شاملة وإنذاره للجميع، لأن الذين يخشونها هم المنتفعون بذلك الإنذار .

ثم ختم الله سبحانه السورة الكريمة بقوله : (كَأَنَّهُمْ يوم يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا) : كأنّ هؤلاء المشركين يوم يرون الساعة، وقد فاجأتهم بأهوالها، لم يلبثوا في دنياهم أو في قبورهم إلاّ وقتاً يسيراً، يشبه العشيّة أو الضُّحي بالنسبة للزمان الطويل.

فمن شّدة أهوالها وأحداثها كأن ما لبثوه في الدنيا ما هو إلا وقتٌ يسير ، وذلك لمارأوا من تلك الأحداث العظام.

والله تعالي يقول: (*فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ* (٨) *فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ* (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ) (٣٩) وقال تعالي: (**يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩)** وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) (٤٠)

إن القرآن زاخرٌ بمثل هذه الآيات ، وكذلك السنة الشريفة .

فائـــدة .

ذكر الشيخ الصاوي في حاشيته على الجلالين ، وفي تفسير آية الأعراف ، أن الذي يجب الإيمان به - أنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لم ينتقل من الدنيا ،حتى أعلمه الله بجميع المغيبات، التي تحصل في الدنيا والآخرة ، فهو يعلمها عين يقين . (٤١)

هذا ما كان في السؤال عن الساعة،التي أكّد القرآن إتيانها وبصورة لا مجال للإنكار فيها.

(ب) قيام الساعة

من عجائب القرآن في الكلام عن الساعة أنه ذكرها بالصيغة الآتية خمس مرات ، وهي:(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ)، فقد جاء هذا الأسلوب بهذه الكيفية بالعدد الذي قدمناه آنفاً ، ثلاثةٌ منها في سورة الروم،وموضعان في سورتين أُخريين، وهذا من بدائع ولطائف الكتاب العزيز ، وسوف نوضح تلك الآيات بإيجاز إن شاء الله فيما يلي :-

(١) قال تعالي: (*وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ*) [٤٢] أى : ويوم تقوم الساعة يُبلس المجرمون، أى ييأسوا وتنقطع حجتهم، وقيل:يفتضحوا، وقيل: يسكتوا، لأن الحقيقة التي كانوا يسألون عنها ويستعجلونها أصبحت حقيقة واضحة لا شك فيها. [٤٣]

وقوله : (وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن *شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ* وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ) [٤٤]

أى : لم تشفع لهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله وكفروا بهم ، لأنهم خانوهم في وقت هم أحوج إليهم . [٤٥]

(٢)وقال تعالي :(*وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ*) [٤٦] قال قتادة : هي والله الفرقة التي لا اجتماع بعدها، فإذا رُفع هذا إلى عليين، وهذا إلى أسفل سافلين ، فذلك آخر العهد بينهما [٤٧] ولهذا وضح القرآن ذلك التفرق قائلاً :(*فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ* فِي *رَوْضَةٍ* يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ)[٤٨] .

قال الإمام الأكبر محمد سيد طنطاوي في تفسيره أى : ويوم تقوم الساعة في هذا اليوم يتفرّق الناس إلى فريقين: فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات في دنياهم فسيكونون في الآخرة في جنّة عظيمة ، سيرون بها نعيماً لا يُحيط به الوصف ، وأما الذين كفروا وكذبوا ، فأولئك المشركون في العذاب محضرون ، أى مقيمون ومجموعون إليه ، بحيث لايستطيعون الهرب منه – والعياذ بالله [٤٩].

(٣) وقال تعالي : (*وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ* كَانُوا يُؤْفَكُونَ) (٥٠) .

آيةٌ ثالثةٌ من سورة الروم أيضاً ، وتستهلّ بنفس الطريقة التي ابتدأت بها الآيتان السابقتان ، يقول الزّمخشري: (الساعة) : القيامة ، سميت بذلك لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا ، أو لآنها تقع بغتة(٥١) .

وقال ابن كثير : في هذه الآية يُخبر الله تعالي عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأصنام ، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً، فمنه إقسامهم بالله أنهم مالبثوا في الدنيا إلا ساعة واحدة ، ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم وأنهم لم يُنظروا حتى يعزر إليهم (٥٢) .

وقوله تعالي: (كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ) الإفك: هو أقبح الكذب وأفحشه ، وما رأوه من الأهوال والأحداث هي التي جعلتهم يقولون ذلك . والمعني : مثل الكذب الذي قالوه في الآخرة كانوا يفعلونه في الدينا ، فهم في الدارين لايخلون عن الكذب والباطل(٥٣) .

(٤).وقال تعالي :(*وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ* أَشَدَّ الْعَذَابِ)(٥٤).

والمعني : ويوم تقوم القيامة يُقال للملائكة : أدخلوا فرعون وقومه نار جهنم التي هي أشد من عذاب الدنيا (٥٥) .

واستحقوا العذاب الشديد لما فعلوه في هذه الأرض الطيبة الطاهرة ، وهذا جزاء من يفعل مثل أفعالهم الخبيثة الماكرة .

(٥) وقال تعالي :(*وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ)* (٥٦)

المعني : ويوم تقوم الساعة التي هي القيامة يخسر المبطلون اي المكذبون الكافرون ، يخسرون في ذلك اليوم أنفسهم أهليهم ، ويصيرون في حالٍ شديدةٍ من الهمّ والغمّ والكرب ، وذلك لأنهم كذّبوا بهذا اليوم(٥٧).

(جـ) المجيء بغتــة.

من لطائف وعجائب كتاب الله تعالي – أنه كرّر مجيء الساعة بغتةً في خمس آيات – أيضاً ، وماذلك إلا ليكون المؤمن العاقل على أُهبة الاستعداد ، وسوف أذكر هذه الآيات الخمس ، وأعقّب ذلك بشرح مؤجز ، لأنها ذات معانٍ متقاربة ، ولا أودّ التطويل أكثر في هذا البحث، وهذه الآيات كالآتي :

(١).قال تعالي:(*قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ* حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ) (٥٨).

(٢). وقال تعالي :(*أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ* مِّنْ *عَذَابِ اللَّهِ* أَوْ *تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ* بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٩).

(٣) وقال تعالي﴿*وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا* فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾(٦٠).

(٤) وقال تعالي﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** ﴾(٦١).

(٥) وقال تعالي: (*فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا* فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ) (٦٢).

هذه الآيات جميعاً تتحدّث عن ذلك الإتيان المباغت ، فهو يبغت النّاس وينزل عليهم بصورة لم تكن في الحُسبان ، ويندهش عند ذلك سكّان الأرض ، وتحتار العقول عند ذلك الوقوع المفاجئ ، وتتحدث وسائل الإعلام بكل أنواعها ، وتنتشر الأخبار في العالم، ويعم الخبر أرجاء المعمورة، ويتساءل الجميع – ما الذ يحدث ؟ ويُصوّر القرآن ذلك في سورة قصيرة قال تعالى :(*إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا* (١) وَأَخْرَجَتِ *الْأَرْضُ* أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ) (٦٣). وعندها تصبح الحقائق ماثلةً أمام العيان ، ولا مجال للإنكار والتكذيب حينئذ، ويصبح ما أخبر به القرآن ورسول البشرية واقعاً لا يندفع ، وعند ذلك يحصل الندم ولا ينفع حينئذ الندم ، وذلك لفوات الأوان .

وما قدمناه إنما هو نمازج للساعة التي هي القيامة ، والتي أكثر القرآن من ذكرها ، وعبّر عنها بأسماء مختلفة ، وبأساليب متنوّعة ، وبنظم بديع ، يحمل العقول على الإيمان والتصديق بها . وما الساعة إلا يوم القيامة الذي سماه الله تعالي في كتابه باسماء كثيرة ، ومن تلك الأسماء (٦٤)

١-الساعة. ٢-القيامة. ٣- يوم النفخة. ٤-يوم الناقور. ٥-يوم القارعة. ٦-يوم الزلزلة. -٧-يوم المناداة. ٨-يوم البعث. ٩-يوم الخروج. ١٠-يوم الحشر. ١١-يوم الجمع. ١٢-يوم العرض. ١٤-يوم التفرق. ١٥-يوم الصور. ١٦-يوم البعثرة. ١٧-يوم الفزع. ١٨- يوم الواقعة. ١٩-يوم الحساب. ٢٠-يوم الجزاء. ٢١-يوم السؤال. ٢٢-يوم التلاق. ٢٣-يوم التبديل. ٢٤-يوم التقلّب. ٢٥-يوم الفرار. ٢٦-يوم الحاقّة. ٢٧-يوم الوزن. ٢٨-يوم الطامّة. ٢٩-يوم التناد. ٣٠-يوم الحق. وكلها مذكورة في القرآن الكريم، وهنالك أسماء غير ما ذكرنا.

ويلاحظ أنّها كلّها أسماءُ مخيفة ورهيبة ، تُلقي في النفس الإنسانية الخوف والرهبة والفزع الشديد، ولا أحدٌ ينجو في ذلك اليوم إلا بالأعمال الصالحة - نسأل الله تعالى النجاة بجاه سيد الأنام ، سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم.

قال بعض الأجلاء (٦٥).

قرُب الرّحيل إلى ديار الآخـره   فاجعل إلهي خير عمـــرى آخره

فلئن رحمتَ فأنت أكرمُ راحم   وبحار جـــــــودك ياإلهـــــي زاخـره

آنس مبيتي في القبور ووحدتي   وارحم عظـامي حين تمُسى ناخره

فأنا المُسيكين الـذي أيامُــه   ولّت بـــــــــــــأوزار غدت متواتره

وتولّه باللـــــــــطـف عند مآله   يامـلك الدنيـــــــــــــا وربّ الآخره

المطلب الثاني

الساعة بمعنى : فترة زمنية مبهمة

الساعة بالمعنى المذكور وردت في القرآن الكريم (٨) مرات [٦٦] ، وهي ذات دلالة زمنية مبهمة، وذلك في كل المواضع التي وردت فيها ، والقرآن الكريم عندما نزل لم تكن تلك الساعة تُستعمل عند العرب إلا بهذا المعنى ، ولهذا استخدمها دالّة على ذات المفهوم الذي تعارفوه بينهم ، وكان ذلك هو المتداول بين الجميع .

أما الساعة التي نتعامل معها الآن فهي متأخّرة عن وقت نزول القرآن ، ولهذا فهي غير مرادة في المعنى القرآني .

والآيات التي وردت فيها كلمة (ساعة) كالآتي :

١) قال تعالى : (**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**)[٦٧].

المعنى : لكل أمة من الأمم ، ولكل جيل من الأجيال ، مدة من العمر محدودة في علم الله تعالي، فاذا ما انتهت هذه المدة انقطعت حياتهم، وفارقوا هذه الدنيا بدون أيّ تقديم أو تأخير، وليس المراد بالساعة هنا ما اصطلح عليه الناس من كونها ستين دقيقة ، وانما المراد بها الوقت الذي هو في غاية القلّة [٦٨] .

قال الإمام القرطبي : وخُصّت الساعة بالذكر لأنها أقلّ أسماء الأوقات ، وهي ظرف زمان. وفي الآية دلالة على أن المقتول قُتل بأجله، لا أن القاتل قطع عليه أجله ، وذلك خلاف لكثير من المعتزلة [٦٩]. وفي الجوهرة : [٧٠]

وميّتٌ بعمره من يُقْتَلُ * * وغيرُ هذا باطلٌ لا يُقبَلُ .

٢) وقال تعالى : (**لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ العُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**)[٧١] .

ومعنى الآية : أن الله تعالي تاب على المذكورين في الآية ، والمراد بـ(ساعةِ العُسْرة) وقت العسرة ، والمراد بذلك جميع أوقات هذه الغزوة ، ولم يرد سبحانه وتعالي ساعة بعينها، وقيل : ساعة العسرة أشدّ السّاعات التي مرّت بهم في تلك الغزوة، والعسرة : صعوبة الأمر، وقد حصل لهم ذلك في الغزوة المذكورة ، والتي هي غزوة تبوك ، وهي آخر غزوة غزاها النبي (صلي الله عليه وسلم) [٧٢].

(٣) وقال تعالى : (**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ**) [٧٣]

المعنى : كأن لّم يلبثوا في قبورهم (إلا ساعةً من النّهار) أي قدر ساعة ، يعني أنهم استقصروا طول مقامهم في القبور لهول ما يرون من البعث ، وقيل : إنما قصُرت مدة لبثهم في الدنيا من هول ما استقبلوا، لا مدة كونهم في القبر ، وقال الحبر ابن عباس : رأوا أن طول أعمارهم في مقابلة الخلود في النّار كساعة . [٧٤]

(٤) وقال تعالى : (**قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**) [٧٥] .

(٥) وقال تعالى : (**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**) [٧٦]

هذه الآية والتي قبلها مثل آية الأعراف التي تقدم ذكرها ، فمعناهما واحد.

(٦) وقال تعالى : (**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ**) [٧٧]

أي : ويوم تقوم الساعة يحلف المشركون بأنهم مالبثوا في الدنيا غير ساعة ، وذلك لأنهم استقلّوا أجل الدنيا لما رأوا وعاينوا الآخرة، وقيل : المراد ما لبثوا في قبورهم غير ساعة [٧٨] . وهم كاذبون في قولهم : أنهم ما لبثوا غير ساعة ، وهي كذبة في الآخرة ، كما كذبوا في الدنيا بالبعث والنشور [٧٩] .

فائدة [٨٠]: هذه الآية جُمع فيها بين الساعة بمعني القيامة، والساعة التي هي فترة غير محددة من الزمان، وبين (الساعةِ) و(ساعةٍ) جناس تام ، ولا يضرّ في ذلك اختلاف الحركات الإعرابية ، ولا وجود (أل) في الأُولى ، لأنها زائدة عن بنية الكلمة ، وكذلك لا يضرّ اختلاف مدلوليهما ، ولا يضر أخذ أحدهما من الأخري ، وظن بعضهم أن (الساعة) بمعني القيامة مجاز ، بخلاف(ساعة)، فإنها حقيقية لا مجاز ، ولا يجوز الجناس المذكور هنا بين حقيقة ومجاز،وذكر أن مثل هذا لم يقع في القرآن إلا في هذا الموضع،وزاد ابن حجر موضعاً آخر،وهو قوله تعالى:(**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَار يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ**) [٨١].

فالأبصار الأُولى جمع بصر ، والثانية جمع بصيرة ، وعلى كُلٍّ فالأُولى حقيقة ، والثانية مجاز ، وما أطلتُ في هذا الموضوع إلا لفائدة [٨٢].

(٧) وقال تعالى : **(قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ)** [٨٣].

في هذه الآية المباركة يأمر الله تعالى رسوله الكريم (صلى الله عليه وسلم) بأن يخبرهم: بأن لهم معياد محدد وهو القيامة ، لا يتقدّمون عليه ولا يتأخّرون عنه [٨٤] . وقيل : المراد : الموت ، والمعني : لا تُزاد آجالهم ولا تنقص [٨٥].

وهذه الآية تقدّم ما يماثلها من الآيات في هذا البحث ، وهو الكلام عن عدم تقدم الأجل أوتأخّره .

(٨) وقال تعالى : **(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا القَوْمُ الفَاسِقُونَ)**[٨٦] .

قال ابن كثير [٨٧]: هذه الآية كقولة جلّ وعلا : **(كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا)** [٨٨]. وكقوله : **(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)** [٨٩] .

وإذن فمعناها يشبه الآيات السابقة ، وذلك أنهم يستقلّون مدة مكثهم في الدنيا أو في القبور، وذلك لشدّة الأهوال والأحداث التي يشاهدونها بأعينهم، وبطريقة واضحةٍ جليّة .

هذا ما كان من معنى الساعة المتقدّم في القرآن الكريم ، ولا ننسي أنها وردت في السنة أيضاً بنفس ذلك المعني ، وذلك في أحاديث يطول ذكرها ، تجدها هنا وهناك في كتب السُّنّة ، ولا أُريد الخوض كثيراً في هذه العجالة .

الخـــاتمة

هذه خاتمة نسأل الله حسنها ، وقد تعارف الباحثون على الحديث فيها عن نتائج البحث وتوصياته ، والكلام في ذلك كما يلي :

نتائج البحث .

من كتابتي لهذا الموضوع تحصلت على النتائج التالية :

١.أن كلمة (ساعة) جاءت في كتاب الله تعالي نكرة ومعرفة ، فإذا جاءت نكرة فالمراد بها برهة قليلة من الزمان ، وأما إذا جاءت مقترنة بـ (ال) فالمراد بها القيامة .

٢.أن كلمة الساعة التي يراد بها القيامة جاءت في كتاب الله تعالي أكثر من (ساعة) التي يراد بها فترة زمنية قليلة ، وماذلك التكرار للساعة التي يراد بها القيامة إلا لتمكينها في العقول والأذهان ، وذلك حتى لا يكون هناك مجال للشك والإنكار .

٣.أن الساعة التي بمعني القيامة من المخفيات ، التي أخفاها الله سبحانه وتعالي لحكمة بالغة ، ولهذا فهي من المخفيات التي لايعلمها إلا هو تعالي أو من أطلعه عليها من أصفيائه الأخيار.

٤.أن الأمر إذا كان خطيراً ، وكان بالغ الأهمية كرره الله تعالي في كتابه ، وذلك كهذا الموضوع الذي نتحدث عنه ، ولهذا فينبغي على المؤمن الواعي أن يقف عند هذا الكم الهائل من الآيات الكريمة ، التي وضح الله فيها (الساعة) وما يصاحبها من أحداثٍ كبيرة ، تجعل الإنسان يقف حائراً عند ذلك لا يدري ماذا يفعل ، بل يقف خائفاً مندهشاً لهول مايراه من تلك الأمور العظيمة ، التي نسأل الله سبحانه وتعالي النجاة عندها .

توصيات البحث .

من خلال هذا الموضوع أوصي نفسي وعامة المسلمين بالجد والإجتهاد والأعمال الصالحة ، التي تقرب الإنسان من الله تعالي ، وتجعله من الناجين من أهوال ذلك اليوم العظيم ، الذي لا ينجو الإنسان منه إلا بالأعمال الصالحة ، التي بها النجاة في الدنيا والآخرة ، فنسأل الله سبحانه وتعالي النجاة من ذلك اليوم العصيب .

الهــوامــش

(١) ألفية ابن مالك ، شرح أبي عبدالله محمد بن أحمد الهواري المالكي الأندلسي ، بتحقيق الدكتور عبدالمجيد السيد ، جـ٤،ص : ٣٥٤، المكتبة الأزهرية للتراث .

(٢) لسان اللسان في تهذيب اللسان ، للعلامة مرتضي الزَّبيدى : (حرف السين) ، دار الكتب العلمية – بيروت .

(٣) مختار الصحاح ، تأليف محمد بن أبي بكر الزَّبيدي الرازي (حرف السين) دار ومكتبة الهلال – بيروت .

(٤) سورة يونس : ٤٩ .

(٥) التجريد الصريح ، لأبي العباس السيد مرتضي ، جـ ١، ص : ٧٠/٦٩ .

(٦) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، تأليف العلامة أحمد بن محمد بن على المقَّري الفيّومي : (حرف السين) ، دار الفكر – بيروت .

(٧) لسان العرب لابن منظور ، جـ ٦، ص : ٣٤١/ ٣٤٢ .

(٨) انظر : شهور العرب ، تأليف عرفان محمد حمور ، ص : ٢٤، دار الكتب العلمية .

(٩) سورة الأنبياء : ٨٠

(١٠) (١١) الموسوعة العلمية المبسطة،للدكتورة خالدة سعيد وآخرين،م ٥ ،ص:٨٣/ ٨٤.

(١٢) هود : ٦١ .

(١٣) البقرة : ٣٠ .

(١٤) انظر : ديوان زهير بن أبي سُلمى (حرف الميم).

(١٥) يونس : ٥

(١٧/١٦) كتاب : (المقيس بين السبت والخميس) ، للدكتور : عبدالرحمن عبدالله ، ص: ١٤/١٣، ط الثانية ، الرياض .

(١٨) كتاب (الروضة البهيّة في ضبط السنة الشمسية)، لأبي عبدالله محمد بن زاكور الفاسي ، ص : ١٤ .

(١٩) الدر الثمين في شرح المرشد المعين ، للشيخ محمد بن أحمد (ميّارة) الفاسي المالكي ، ص : ١٥١، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني ، القاهرة .

(٢٠) الشرح الكبير للشيخ أحمد الدردير مع حاشية الدّسوقي ، جـ ١ ، ص : ١٧٥ وما بعدها ، دار الفكر .

(٢١) أحفظ هذا البيت ولكن لم أقف على مصدره .

(٢٢) الدر الثمين (المرجع السابق) ، ص : ١٥١ .

(٢٣) (٢٤) المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم ، للشيخ محمد فؤاد عبدالباقي (حرف السين) ، دار الحديث ، القاهرة .

(٢٥) الأعراف : ١٨٧.

(٢٦) التفسير الوسيط ، لقضيلة الإمام الأكبر الشيخ الدكتور محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر ، م٥ / ٦٣، دار السعادة .

(٢٧/٢٨/٢٩/٣٠/٣١) المرجع السابق ، م ٥ / ٧٢.

(٣٢) انظر : حاشية ابن حمدون على ميارة الكبري، ج٢، ص: ٢٥، الطبعة الحلبية.

(٣٣) التفسير الوسيط ، للشيخ طنطاوي ، م ٥/ ٤٤٨.

(٣٤) انظر:المعجم الفهرس لآيات القرآن الكريم ، تأليف محمد فؤاد عبد الباقي ، (حرف السين)

(٣٥) التفسير الوسيط ، للشيخ طنطاوي ، م٥ / ٤٤٩ .

(٣٦) الأحزاب : ٦٣.

(٣٧) النازعات : ٤٢-٤٦.

(٣٨) انظر:التفسير الوسيط للشيخ طنطاوي: ١٧٧/١٥ ، وانظر الآلوسي:٣٧/٣٠.

(٣٩) المدثر: ٨-١٠.

(٤٠) الطور : ٩-١١ .

(٤١) انظر : الطبعة الحلبية ، م ١٠٤/٢ ، والتفسير الوسيط ٤٥١/٥.

(٤٢) الروم : ١٢.

(٤٣) ابن كثير ٤٢٨/٣ ، دار التراث .

(٤٤) الروم : ١٣.

(٤٥) ابن كثير ٤٢٨/٣.

(٤٦) الروم : ١٤.

(٤٧) ابن كثير ٤٢٨/٣.

(٤٨) الروم : ١٥-١٦.

(٤٩) التفسير الوسيط م ٧٢/١١.

(٥٠) الروم : ٥٥.

(٥١) الكشاف ٥١٧/٣.

(٥٢) ابن كثير ٤٤٠/٣.

(٥٣) التفسير الوسيط ١٠٠/١١.

(٥٤) غافر : ٤٦.

(٥٥) صفوة التفاسير ١٠٥/٣.

(٥٦) الجاثية : ٢٧.

(٥٧) التفسير الوسيط ١٦٥/١٣.

(٥٨) الأنعام :٣١.

(٥٩) يوسف: ١٠٧.

(٦٠) الحج : ٥٥.

(٦١) الزخرف : ٦٦.

(٦٢) محمد : ١٨.

(٦٣) الزلزلة : ١-٨.

(٦٤) انظر:القول المبين في أشراط الساعة الصغرى ليوم الدين، أمين محمد جمال، (كلية الدعوة جامعة الأزهر) ، ص : ٨.

(٦٥) المرجع السابق ، ص : ٣.

(٦٦) المعجم المفهرس للشيخ محمد فؤاد عبد الباقي ، (حرف السين) .

(٦٧) الأعراف : ٣٤.

(٦٨) التفسير الوسيط ، للشيخ طنطاوي ٢٦٧/٥.

(٦٩) تفسير القرطبي ، ١٧٧/٤.

(٧٠) انظر : جوهرة التوحيد للشيخ إبراهيم اللقاني بشرح البيجوري ، ص :١٠٤.

(٧١) التوبة : ١١٧.

(٧٢) القرطبي ٥٩٣/٥٩٢/٤.

(٧٣) يونس : ٤٥.

(٧٤) القرطبي ٦٤٨/٤.

(٧٥) يونس : ٤٩.

(٧٦) النحل : ٦١.

(٧٧) الروم : ٥٥.

(٧٩/٧٨) صفوة التفاسير للشيخ الصابوني ٤٦٩/٢ – دار الصابوني.

(٨٠) انظر : تفسير الآلوسي ، جـ ٢١ / ٤٠ ، إدارة الطبعة المنيرية.

(٨١) النور : ٤٣ / ٤٤ .

(٨٢) تفسير الآلوسي ٤٠/٢١.

(٨٣) سبأ : ٣٠.

(٨٥/٨٤) تفسير الإمام البغوي ، م ٤ / ٣٠٠ .

(٨٦) الأحقاف : ٣٥ .

(٨٧) تفسير ابن كثير ، م ٤ / ١٧٢ ، دار التراث .

(٨٨) النازعات : ٤٦ .

(٨٩) يونس : ٤٥ .